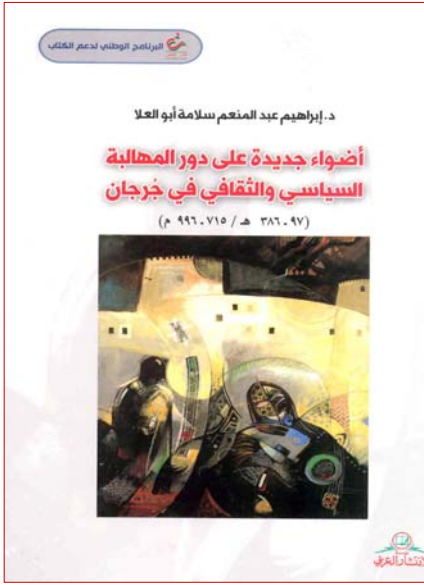




أضواء جديدة على دور المهالبة السياسي والثقافي في جرجان



المؤلف: إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا

الناشر: بدعم من مجلس البحث العلمي (عمان)، ومن خلال "البرنامج الوطني لدعم الكتاب" في النادي الثقافي (مسقط)، بالاشتراك مع مؤسسة الانتشار العربي (بيروت).

تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠١٢

عدد الصفحات: ٢٢٣ من الحجم المتوسط

عرض

أ.د. إبراهيم عبد المنعم سلامة

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس



أهمية موضوع الكتاب

اعتمدت الحكومات المركزية والمستقلة منذ قيام الدولة العربية الإسلامية في تدبير شؤون الحرب والسياسة والإدارة على النابيين من رجالات الأسر الشريفة. وكان آل المهلب العمانيون أسرة ذات رئاسة ونباهة منذ فجر الإسلام، فقد كان لهم دور بارز في الفتوحات الإسلامية على الجبهة الشرقية في عهدي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، كما شاركوا مثل غيرهم من العشائر والقبائل العمانية في فتوح فارس والسند منذ استقرارهم بالبصرة في خلافة عثمان بن عفان، وكانوا في حزب الخليفة علي بن أبي طالب بعد معركة الجمل ضد خصومه. وقد اشتهر المهالبة كما يذكر العوتبي بالتزام طاعة أولى الأمر، فالتحقوا بخدمة الأمويين وصاروا من رجالهم، وارتفعت مكانتهم لديهم، فقد عهدوا إلى المهلب بن أبي صفرة رأس هذه الأسرة بعدة مهام عسكرية كبرى في خراسان والسند وبلاد ما وراء النهر، كما أوكلا إليه وأولاده مهمة التصدي لخطر الخوارج الأزارقة والقضاء عليهم. وتقلد المهلب وأولاده وأشهرهم يزيد أرقى المناصب الإدارية والعسكرية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وولده سليمان، وواصلوا جهودهم في الفتوحات في بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر. وهكذا برز منهم رجال ذاع صيتهم في الآفاق بما اتصفوا به من علم، وحزم وشجاعة، وكفاية إدارية، وجود وكرم، وفي ذلك يذكر ابن خلكان "وخلف المهلب عدة أولاد نجباء كرماء أجواد أمجاد"، وقد "أجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب".

ورغم النكبة التي حلت بآل المهلب على أيدي الأمويين في موقعه العقر، وما أصابهم بعدها في قنديل (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م)، من قتل وأسر وتشريد، فقد نشأ منهم جيل جديد بعمان والعراق وخراسان وجرجان وغيرها، وفي عصر الدولة العباسية ضربوا في كل فضيلة

بسمهم: فكان منهم القادة العسكريون، والوزراء والكتاب وولاة الأقاليم، وخملة العلم ورواة الحديث، والأدباء والشعراء. ومع أنهم في الأصل عمانيون، غير أن نشاطهم وإقامتهم خارج عُمان جعلتهم لا يُعرفون هناك إلا بالنسبة إلى البلد الذي سكنوه وتنازلوا به، فقبل: المهالبة البصريون، والكوفيون، والبغداديون، والخراسانيون، والجرجانيون، والسمرقنديون، والمكيون، والمصريون، والأندلسيون وغير ذلك.

وقد اهتم الكتاب القدامى من المهالبة وأنصارهم وموالمهم بنسبهم ومناكحهم و تاريخهم، فخصصوا لذلك بعض مصنفاتهم: فقد ألف خالد بن خدّاش بن عجلان المهلب مولاهم (ت ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م)، وكان مؤرخاً ومحدثاً ثقة، كتابين عن تاريخهم، والخدمات الجليلة التي أدوها للدولة الأموية، وتصديهم للخوارج الأزارقة، الكتاب الأول بعنوان "أخبار آل المهلب"، والثاني بعنوان "الأزارقة وحروب المهلب"، وأفرد العلامة أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م) صاحب ذي الوزارتين الحسن محمد بن هارون المهلب (وزير معز الدولة بن بويه في عهد الخليفة المطيع العباسي)، كتاباً عن نسبهم بعنوان "نسب آل المهلب"، وكان للمغيرة بن محمد المهلب كتاب بعنوان "مناكح آل المهلب"، وصنف يزيد بن محمد المهلب الشاعر كتاباً بعنوان: "كتاب المهلب وأخبار ولده"، كذلك خصهم النسابة الثقة محمد بن عبد الرحمن العبدوي (توفي قبل سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م)، بكتابين هما: "مناكح آل المهلب"، و"نسب ولد أبي صفرة المهلب وولده". وللأسف فإن هذه الكتب مفقودة ولم تصل إلينا، ولم نطلع على شيء منها.

غير أن المؤرخين والنسابة، وأصحاب كتب الحديث، والتراجم والسير واللغة والأدب قد ذكروا أخباراً متفرقة عن نسب آل المهلب وتاريخهم ونشاطهم السياسي والحربي، ومآثرهم في الإقدام والجود



شرقًا وغربًا، ومنها: جرجان. ومع ذلك فقد ظلت بصمات المهالبة باقية بجرجان، وآثارهم العلمية متداولة في الأفاق فترة طويلة من الزمن بفضل الناهيين من تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم.

مناهج المعالجة

اعتمدت على عديد من المناهج النقدية في معالجة موضوعات هذا الكتاب؛ فقد عولت على منهج يقوم على جمع النصوص المشتتة من مظاهرها التاريخية الأصلية، والاستعانة بالمصادر الفقهية والجغرافية والأدبية، وكل ما يتضمن إيماءات مفيدة وشذرات ذات قيمة لاقتحام الجوانب المضطربة من الموضوع، ثم ترتيبها وتنسيقها حسب التقسيمات المطروحة، وقراءتها قراءة مؤسسة تمتد عبر مساحات معرفية متنوعة تسعى إلى التفسير والنقد وكشف أبعاد النص واستنباط مضمراته فيما يعرف بالمنهج التحليلي الاستقرائي (الهرمونيظقي)، مع الحرص على توثيق كل فكرة أو تحليل أو اجتهاد انطلاقاً من الأصول التي اتسمت بالكثافة والتنوع. وقد حرصت على تخرير الأحاديث النبوية من مظاهرها الأصلية، وتناولتها بالجرح والتعديل، قصد التحقق من صحتها. وحرصت أيضاً على الاستشهاد بأكبر قدر ممكن من النصوص التاريخية، والدينية، والأدبية، فلم أذكر وسعاً في التنقيب في ثنایا أرشيفات الكتب التراثية، حتى أننا لا نكاد نطالع صفحة من صفحات الكتاب إلا ونجد فيها اقتباساً أو أكثر، وبلغ عدد الإحالات المصدرة ثلاثمائة وست وتسعين إحالة، لتدعيمه من جهة، ولوضع القارئ في الصورة المعاصرة من جهة أخرى. كما لا تخلو معظم صفحات الكتاب من جديد في تحقيق الأحداث، والوقائع، والتواريخ، والأسماء، والمواضع، والأماكن.

كما اتبعت المنهج الوصفي اعتماداً على المادة العلمية الجديدة التي وُظفت في سد الفجوات المتعلقة بفتح يزيد بن المهلب لجرجان، ودور المهالبة الثقافي بها، خاصة تراجم الفقهاء والمحدثين المهالبة الجرجانيين، وقد عمدت إلى التفصيل، وأكثر من ذكر الأحداث والوقائع. أما المسائل المتفق عليها بين الباحثين سلفاً؛ فلم أسترسل في عرضها إلا بالقدر الذي يخدم استمرارية العرض، أو يستلزم إضافة قرائن جديدة لم تكن متاحة من قبل. واعتمدت أيضاً المنهج المقارن خاصة عند معالجة أسباب فتح جرجان وأهميته، مقارنة بفتح بلاد ما وراء النهر، وأسباب هزائم المهالبة في العقر وقنديل، وأبرزها الانقسامات الخطيرة داخل صفوفهم، وخذلان أنصارهم وانفضاضهم عنهم قبل بداية هذه المعارك، فقارنتها بمثيلاتها التي وقعت في صفوف الخليفة علي بن أبي طالب عند قتاله لأهل الشام قبل صفين، وقارنت أيضاً بين مقتل المهالبة بين يدي الخليفة يزيد بن عبد الملك بعد قنديل، ونكبة العلويين على يد الخليفة يزيد بن معاوية عقب كربلاء.

كذلك عولت في هذا الكتاب على التفسير الإسلامي للتاريخ، فذهبت إلى المنهج الأخلاقي المستمد من الإيمان عند المهالبة الجرجانيين، كان أحد الأسس التي هيأت لهم تربية أولادهم تربية علمية إسلامية خالصة، وغرس القيم الدينية في نفوسهم منذ صغرهم، ورجحت أن إدراك المهالبة الزهاد حد الاعتدال في الزهد، وأنه لا يتعارض مع الثراء والتمتع بما أحل الله لعباده من ملذات الحياة، وأن تربيتهم لمريدتهم على القيم الروحية وتعميقها في نفوسهم، كانت انعكاساً للروح الدينية والإيمان العميق. وأن بعض

والكرم، والعلم والأدب في ثنایا مصنفاتهم، واعتمد عليهم المؤرخون المحدثون الذين تحدثوا عن آل المهلب عند تأريخهم لحركة الفتوح الإسلامية على الجبهة الشرقية، ودراسة تاريخ الدولة العربية الإسلامية منذ عصر الراشدين حتى عصر الدولة العباسية.

وقد كان لجرجان - وهي حالياً مدينة إستراباذ من أعمال مازندران في جمهورية إيران الإسلامية - شأن عظيم في التاريخ العلمي الإسلامي، لشهرتها بكثرة النابغين من علمائها وشيوخها وقضلائها. وكان للمهالبة دور سياسي وثقافي مهم بها؛ فهم الذين فتحوها ومَصَرَّوها، ونشروا الإسلام بها. وكانت من ولاياتهم زمن الأمويين. كما تقلد أحدهم وهو خالد بن يزيد ولايتها وقيادة جيوشها في عهد المهدي وولده الهادي العباسيين. وقد استقر بعضهم هناك وتناسلوا بها، ومن أشهرهم: عقب مغلد بن يزيد بن المهلب، وأبناء عمه أبي غُيْنَة (غُيْنَة)، (وقيل اسمه عزرة)، بن المهلب وأحفادهم، وأسيباطهم، ومنهم: أسباط الفقيه المحدث عبد الرحمن بن عبد المؤمن أبناء ابنته (للأسف لم نعثر على ترجمتها في المصادر المتاحة بين أيدينا) زوجة الفقيه حمدان بن محمد المشتوتوي الجرجاني، وكانوا من العلماء الناهيين؛ لأنهم ينتسبون إليهم من جهة الأم، وقد ورد في الأثر أن ابن أخت القوم منهم، كما يرجع إليهم الفضل أيضاً في تكوينهم العلمي المتين.

وقد برز من هؤلاء المهالبة علماء في الفقه، والحديث، ورواية الأخبار، وكان منهم أيضاً شعراء، وزهاد. ومع ذلك فلم يوجه الكتاب المحدثون لدورهم هذا ما يستحقه من اهتمام، فلم يفرّدوا له بحثاً قائماً بذاته، وكل ما كتب عنه لا يعدو نتفاً متفرقة عن فتح يزيد ابن المهلب لجرجان، وبنائها في ثنایا الحديث عن الفتوحات الإسلامية، بينما أغفلوا إسهاماتهم الثقافية الأخرى هناك، ولم يأتوا عليها، رغم معالجة بعض الباحثين في الآونة الأخيرة موضوعات عن الحياة الثقافية بخراسان وبلاد ما وراء النهر في القرنين الثالث والرابع للهجرة، منها: دراسة إحسان دنون الثامري بعنوان "الحياة العلمية زمن السامانيين". مما دفعني لمعالجة هذا الموضوع في هذا الكتاب مستهدفاً إبراز ملامح هذا الدور وأهميته، وتبسيط الضوء على بعض مآثر آل المهلب ومناقبهم المنسية، بتوظيف بعض المصادر المنشورة والمُحققة التي لم توظف من قبل بالقدر الذي يتناسب وأهميتها، منها: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والمعجم في أسامي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي لأبي بكر الإسماعيلي الجرجاني، وتاريخ جرجان للسهمي الجرجاني.

وقد حددت الفترة من ٩٧ هـ / ٧١٥ م إلى ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م كمجال زمني للدراسة، لأن التاريخ الأول يمثل فتح جرجان ثم بناءها وتمصيرها على يد يزيد بن المهلب في العام التالي، وبداية دور المهالبة السياسي والثقافي بها. أما التاريخ الثاني فهو تاريخ وفاة أبي ذر جندب بن أحمد آخر من عثرنا عليه من مشاهير آل المهلب هناك، كما كانت تلك الفترة (خاصة القرنين الثالث والرابع الهجريين) تمثل الحقبة الذهبية لإشعاع الحضارة الإسلامية وتعدد مراكزها الثقافية



(٣) أن معاملة يزيد بن المهلب القاسية لأهالي دهستان، أدخلت الرعب والفرع في نفوس الجرجانيين فهابوه وسارعوا إلى مسالمتهم وموادعتهم.

(٤) أن فتح يزيد بن المهلب الأول لجرجان لم يكن حاسماً، فقد غدر أهلها وانقلبوا على الحامية الإسلامية، وقطعوا الطرق ومنعوا وصول الإمدادات إليه وهو على حصار طبرستان، فهاله ذلك وعظم عليه، فصالح أهالي طبرستان، وانصرف إلى جرجان وأعاد فتحها وثأر من أهلها.

(٥) أن يزيد بن المهلب كان معتزاً بفتح طبرستان وجرجان متباهياً بهما، لأهمية هذا الفتح، وبروزه كفاح عظيم يتفوق عسكرياً على السابقين عليه من قادة الفتح الإسلامي في المشرق.

(٦) أنه ترتب على فشل ثورة يزيد بن المهلب على الخليفة يزيد بن عبد الملك، ومقتله ومعظم إخوته وأهل بيته بالعقر وقنديل، أن حلت ببقيتهم وأعوامهم بجرجان وخراسان والعراق النكبات والمصادرات، وضياح سلطانتهم هناك.

(٧) أن علاقة المهالبة السياسية بجرجان لم تنقطع في عصر الدولة العباسية، وأن ولاية خالد بن يزيد بن حاتم لجرجان في عهدي المهدي وولده الهادي حفزت بعض أقاربه ممن كان لأسلافهم علاقة وطيدة بها على الخروج إليها والاستقرار بها، ومنهم: نسل مخلد بن يزيد بن المهلب، وعقب أبي عيينة وقيصة ابنا المهلب. (٨) أن المدة التي مكث فيها يزيد بن المهلب بجرجان بعد فتحها كانت مليئة بالأعمال و المنجزات المهمة؛ كبناء جرجان وتمصيرها واختطاط المساجد الكثيرة بها، ونشر الإسلام بين أهلها، وقد اعتبرت هذه الأعمال مقدمة لدور المهالبة الثقافي هناك.

(٩) أن المهالبة ساهموا بفعالية في الحياة الثقافية بجرجان، فبرزوا في علمي الفقه والحديث. وأن إبراهيم بن هاني شيخ الشافعية بجرجان في وقته، والحافظ المحدث عبد الرحمن بن عبد المؤمن وغيرهما من العلماء المهالبة بلغوا مكانة علمية رفيعة، ودوّت شهرتهم في الآفاق، وساهموا في تشكيل ثقافة تلاميذهم الذين أصبحوا من أبرز علماء جرجان والأمصار الإسلامية.

(١٠) أن نساء المهالبة ومن أشهرهن الفقهية أم الفضل هبة العزيز بنت أحمد بن عبد الرحمن ساهمن أيضاً في الحياة العلمية بجرجان بفعالية كبيرة.

(١١) أن المهالبة اهتموا بالحركة الأدبية بجرجان منذ فتحها وتمصيرها، ف جذب يزيد بن المهلب إليها الشعراء والأدباء وأغدق عليهم العطايا. كما شارك بعض الشعراء المهالبة في مجالسها الثقافية خلال العصر العباسي الأول.

(١٢) أن المهالبة الجرجانيين اهتموا بالتاريخ والأخبار، وبرز منهم: إبراهيم بن هاني بقوة حفظه للأخبار وراويته ونقده لها، حتى صار مصدراً أصيلاً لمن جاء بعده من مؤرخي جرجان كالسهي صاحب تاريخ جرجان.

(١٣) أن بعض المهالبة الزهاد أدركوا حد الاعتدال في الزهد، وأنه قد تطور من مجرد عبادات ونسك مظهرها التقشف، إلى فكر متوازن ينطوي على رؤى فلسفية للوجود، فلم ينخرطوا في السلوكيات القاسية لغيرهم من الزهاد، خاصة تعذيب الأبدان وحرمان النفوس من اللذات المباحة.

الفقهاء المهالبة حرصوا على تعليم تلاميذهم القرآن الكريم وتفسيره، لينالوا ثواب تعليمه كما بشر به الرسول ﷺ.

تقسيم الكتاب

اقتضت طبيعة موضوع الكتاب أن يُقسم إلى مقدمة، ودراسة تمهيدية، وفصلين وخاتمة. وقد تناولت في المقدمة أهمية الموضوع، والدراسات السابقة، وتحليل لأهم المصادر، ومناهج المأالجة، وتقسيم الكتاب، أما الدراسة التمهيدية فكانت عن نسب المهالبة وأوليتهم ودورهم في خدمة الدولة العربية حتى سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م. وعالجت في الفصل الأول دور المهالبة السياسي بجرجان منذ فتحهم لها حتى العصر العباسي الأول، أشرت فيه إلى اسم جرجان وموقعها الجغرافي وبداية اتصال المسلمين بها، ثم تحدثت عن يزيد ابن المهلب والفتح الأول لجرجان ٩٧ هـ / ٧١٥ م، ثم فتحه الثاني لها ٩٨ هـ / ٧١٦ م، كما تناولت نكبة المهالبة على يد الأمويين وضياح سلطانتهم بجرجان، وأخيراً خصصت مبحثاً للحديث عن علاقة المهالبة السياسية بجرجان واستيطانهم بها خلال العصر العباسي. أما الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن دورهم الثقافي هناك، وعرضت فيه المقدمات التي مهدت لهذا الدور، ثم تناولت إسهاماتهم في العلوم الدينية بجرجان، كالفقه، وعلم الحديث، وصلاتهم بمراكز الثقافة الإسلامية الأخرى، وانتشار علومهم بها. وكنت أقدم بذكر النشأة العلمية للمهالبة وتكوينهم الثقافي على مشايخ بلدهم موضعاً مدى استفادتهم منهم، ثم أتبع ذلك بذكر تلاميذهم بجرجان والروايات التي سمعوها منهم وحدثوا بها بجرجان وغيرها من الأمصار الإسلامية، وأخيراً رحلت المهالبة العلمية، وتناولت في هذا الفصل أيضاً رعاية قادة المهالبة ولاة جرجان للحركة الأدبية بها، ومشاركة بعضهم فيها، وشهرة بعضهم في رواية التاريخ والأخبار، وأشرت أيضاً إلى انخراط بعضهم في حياة الزهد. وختمت هذا الكتاب بذكر أهم النتائج التي انتهت إليها. ثم أوردت قائمة بالمصادر العربية، والفارسية المعترية، والمراجع العربية والفارسية والأوربية المعربة، والأجنبية ومواقع الإنترنت، وأخيراً ألحقت بالكتاب ملحقين يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالموضوع، الأول منهما: عن شجرة نسب المهالبة، والثاني: عن شجرة نسب آل المهلب في جرجان، كما ذيلته بخريطة عن موقع جرجان.

الخاتمة

استعرضنا في هذه الدراسة دور المهالبة السياسي والثقافي في مدينة جرجان منذ الفتح الإسلامي لها حتى أواخر القرن الرابع الهجري (٩٧- ٣٨٦ هـ / ٧١٥- ٩٩٦ م). واستطاع الباحث تأكيد بعض الحقائق التاريخية التي لها علاقة مباشرة بالموضوع، والتوصل إلى عدد من النتائج المهمة من خلال تحليل بعض النصوص ومناقشتها، واستنتاج بعض النصوص الأخرى التي وردت في المصادر التاريخية والأدبية و الفقهية، نوجزها فيما يلي:

(١) أن الفتح الإسلامي لجرجان في عهد الخلفاء الراشدين لم يكن مستقرًا، وأن قتيبة بن مسلم الباهلي رغم جهوده العسكرية العظيمة في هذه النواحي لم يضع حداً لتجاوزات الجرجانيين.

(٢) أن يزيد بن المهلب كان خبيراً بأحوال منطقتي جرجان وطبرستان، مُطلعاً على فساد أهلها، وأنه لم يُبالغ في تقدير خطورة ترك المسلمين لجرجان دون الاستيلاء عليها.